العدد 2814 - السنة العاشرة
الثلاثاء 17 شوال 1438 - الموافق 11 يوليو 2017
Tuesday 11 July 2017 - No.2814 - 10th Year

الإسلام نهى عن الإسراف وأكد أنه مذموم وينتهي إلى التهلكة

المسرف سفيه في نظر العقلاء بغيض في عين الشريعة

في عالمنا العربي عامة والخليجي خاصة يأتي الإسراف على رأس الأمور التي تؤدي إلى الاستدانة ولاشك أن المسرف يجهل تعاليم الدين الذي ينهى عن الإسراف بشتى صوره، فلو كان مطلعا على القرآن الكريم والسنة النبوية لما اتصف بالإسراف الذي نهى عنه «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا» فعاقبة المسرف في الدنيا الحسرة والندامة «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا» وفي الآخرة العقاب الأليم والعذاب الشديد «وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم إنهم كانوا قبل ذلك مترفين».

يظن المسرف أن المجتمع ينظر إليه بإعجاب، والحقيقة غير ذلك، فالعقلاء يرونه سفيها، ولا يحبون أن يكونوا على شاكلته، بينما قد يخدعه من هم على دربه، وفي فترات الشيخوخة، أو نفاد المال ونضوب مصادره يعض المسرف على يديه، وقت لا ينفع الندم، ولا يجد حوله من أصدقاء الإسراف إلا من هم على شاكلته نادمين، ينتظرون مساعدات الآخرين، أو على الأقل يعيشون في مستوى من الإنفاق والاستهلاك أقل من المتوسط، وكان بإمكانهم أن يكونوا أحسن حالا لو أنهم قدموا لأنفسهم.

ويحضرنا هنا ما ورد في كتاب الله عز وجل لتوضيح المنهج الذي ينبغي أن يتبع في الاستهلاك والإنفاق، فيقول الحق تبارك وتعالى «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا» الإسراء:29. فخير الأمور الوسط، فلا إسراف ولا تقتير.

وتبين السنة أهمية الاعتدال في الإنفاق من خلال العديد من الأحاديث الشريفة وسلوك رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته، ونشير هنا على وجه السرعة إلى قوله صلى الله عليه وسلم «رحم الله امرئ اكتسب طيبا، وأنفق قصدا، وادخر ليوم فقره وحاجته» عن ابن النجار عن عائشة رضي الله عنها، ضعفه السيوطي في الجامع الصغير.

والإسراف كما يكون من الغني، قد يكون من الفقير أيضا، لأنه أمر نسبي، والإسراف يكون تارة بالقدر، ويكون تارة بالكيفية، ولهذا قال سفيان الثوري رضي الله عنه: «ما أنفقت في غير طاعة الله فهو سرف، وإن كان قليلا»، وكذا قال ابن عباس رضي الله عنه: «من أنفق درهما في غير حقه فهو سرف».

ولا يعني ذلك أن يحيا الفرد أو الأسرة بعيدا عن الترفيه، فهذا غير واقعي ولا يناسب النفس البشرية، ولكن المطلوب أن يمارس الترفيه في الحدود المقبولة كما وكيفا، بما يتناسب وإمكانيات الفرد والأسرة، وذلك في مجالات المأكل والمشرب والملبس، وأثاث البيوت، والترويح عن النفس، أو في المناسبات الاجتماعية كالأفراح، أو الاحتفال بالنجاح وأعياد الميلاد، أو رحلات المصايف... الخ. ومن فضل الله أن كل هذه الصور متاحة لمختلف المستويات والدخول، ويبقى أمام المستفيد منها أن يعتدل ولا يسرف.

خير الأمور الوسط فلا إسراف ولا تقتير.. والترفيه جائز في الحدود المقبولة

أسباب الإسراف

البعد عن صحيح الدين، أو الفهم الخاطئ للدين. والمقصود هنا أن جوهر الدين هو الاعتدال والوسطية، وذلك كله يصب في محاربة الإسراف، فليس من الدين أو معرفة تعاليم الدين أن يبدد الإنسان موارده، أو يستهلك فوق حاجته، أو ينفق فيما لا ينبغي وإن كان حلالا، التنشئة الخاطئة في الأسرة، أو وجود نموذج سيئ للقدوة في المدرسة أو الشارع أو النادي أو وسائل الإعلام، مما يجعل الإسراف نوعا من الاعتياد السلوكي أو يجعله مكونا أصيلا في شخصية الفرد وثقافته، عدم الإدراك بطبيعة الحياة، وأنها ليست على وتيرة واحدة، وأن الإنسان له فترات ضعف وقدرة على الكسب تختلف بمرور الوقت والعمر، فمرحلة الشباب غير مرحلة الرجولة والكهولة، ثم الشيخوخة، أو فترات العزوبية غير مرحلة المسؤولية الأسرية، ومن هنا لو علم الفرد هذه الأمور لأدرك أن الإسراف سيؤدي به إلى سوء العاقبة، الصحبة السيئة، قد يبتلى الفرد أو يسعى لمصاحبة مسرفين، فيدفعونه إلى هذا السلوك السيئ، وكما قال صلى الله عليه وسلم «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»، تبدل الأحوال المعيشية للأفضل، قد يكون هذا أحد أبواب الإسراف، إذ يشعر الفرد بنوع من الحرمان يدفعه لسوء التصرف، وممارسة سلوك مسرف حب الظهور والسعي لتقليد الآخرين.

ومن آثاره السلبية تبديد الموارد، وهي آفة تعمل على إفقار الفرد والمجتمع على الأجل المتوسط والبعيد، فضلا عن الفرصة البديلة لما أنفق في الإسراف، إذ كان البديل توجيه الإنفاق لمجالات تعاني من عجز، أو مدخرات توظف في الاستثمار، مما ينفع آخرين هم في حاجة إليه.

عمر بن عبدالعزيز.. رجل عاش مع كتاب الله متدبراً ومنفذاً لأوامره

رزق عمر بن عبدالعزيز منذ صغره حب الإقبال على طلب العلم وحب المطالعة والمذاكرة بين العلماء كما كان يحرص على ملازمة مجالس العلم في المدينة وكانت يومئذ منارة العلم والصلاح زاخرة بالعلماء والفقهاء والصالحين، وتاقت نفسه للعلم وهو صغير وكان أول ما استبين من رشد عمر بن عبد العزيز حرصه على العلم ورغبته في الأدب، وجمع عمر بن عبد العزيز القرآن وهو صغير وساعده على ذلك صفاء نفسه وقدرته الكبيرة على الحفظ وتفرغه الكامل لطلب العلم والحفظ. وقد تأثر كثيرا بالقرآن الكريم في نظرته لله عز وجل والحياة والكون والجنة والنار، والقضاء والقدر، وحقيقة الموت وكان يبكي لذكر الموت بالرغم من حداثة سنه فبلغ ذلك أمه فأرسلت إليه وقالت ما يبكيك؟ قال: ذكرت الموت. فبكت أمه حين بلغها ذلك، وقد عاش طيلة حياته مع كتاب الله عز وجل متدبرا ومنفذا لأوامره، ومن مواقفه مع القرآن الكريم:

أولا: عن ابن أبي ذيب: قال: حدثني من شهد عمر بن عبد العزيز وهو أمير المدينة، وقرأ عنده رجل: (وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا) فبكى عمر حتى غلبه البكاء وعلا نشيجه، فقام من مجلسه فدخل بيته، وتفرق الناس. ومفهوم هذه الآية: إذا ألقي هؤلاء المكذبون بالساعة من النار مكانا ضيقا، قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال (دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا). والثبور في هذا الموضوع دعا هؤلاء القوم بالندم على انصرافهم عن طاعة الله في الدنيا والإيمان بما جاء به نبي الله صلى الله عليه وسلم حتى استوجبوا العقوبة.

ثانيا: عن أبي مودود قال: بلغني أن عمر بن عبد العزيز قرأ ذات يوم: (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا) فبكى بكاء شديدا حتى سمعه أهل الدار. فجاءت فاطمة -زوجته- فجعلت تبكي لبكائه وبكى أهل الدار لبكائهما، فجاء عبد الملك، فدخل عليهم وهم على تلك الحال يبكون فقال: يا أبه، ما يبكيك؟ قال: خير يا بني، ود أبوك أنه لم يعرف الدنيا ولم تعرفه، والله يا بني لقد خشيت أن أهلك والله يا بني لقد خشيت أن أكون من أهل النار. ومعنى الآية: إن الله تعالى يخبر نبيه صلى الله عليه وسلم أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين كقوله: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات، وكذلك الدواب السارحة في قوله: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ)، وقال تعالى: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)، وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة؟ كما قال تعالى: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ)، ولهذا قال تعالى: إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راءون سامعون.

ثالثا: عن عبد الأعلى بن أبي عبد الله العنزي قال: رأيت عمر بن عبد العزيز خرج يوم الجمعة في ثياب دسمة ووراءه حبشي يمشي فلما انتهى إلى الناس رجع الحبشي، فكان عمر إذا انتهى إلى الرجلين قال: هكذا رحمكما الله، حتى صعد المنبر، فخطب فقرأ: (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)، فقال: وما شأن الشمس؟ (وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ)، حتى انتهى إلى (وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ) فبكى وبكى أهل المسجد، وارتج المسجد بالبكاء حتى رأيت أن حيطان المسجد تبكي معه. وهذه السورة جاء فيها الأوصاف التي وصف بها يوم القيامة من الأوصاف التي تنزعج لها القلوب، وتشتد من أجلها الكروب، وترتعد الفرائص، وتعم المخاوف، وتحث أولي الألباب للاستعداد لذلك اليوم، وتزجرهم عن كل ما يوجب اللوم، ولهذا قال بعض السلف: من أراد أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليتدبر سورة (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)، بل ثبت مرفوعا من حديث ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)، (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ)، (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ).

رابعا: وعن ميمون بن مهران قال: قرأ عمر بن عبد العزيز «أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ» فبكى ثم قال: «حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ» ما أرى المقابر إلا زيارة، ولابد لمن يزورها أن يرجع إلى جنة أو إلى النار، هذه بعض المواقف التي تبين تأثير القرآن الكريم على شخصية عمر بن عبد العزيز؛ ولا تعليق على حالنا نحن مع القرآن يكفينا سماع سير هؤلاء الصالحين لنتحسر على أنفسنا وعلى أفعالنا، وربما وسع أحد منا أن يتعظ أو يستفيد من حال هؤلاء السلف الصالح فيكون من الناجين بإذن رب العالمين.

الطريق إلى نيل العلم.. وآثار الجهل

المتعلم الذي يبتغي طلب العلم ينبغي عليه شروط من أهمها: إخلاص النية لوجه الله تعالى، تقوى الله ومراقبته في السر والعلن، الصبر وتحمل المشاق وسعة الصدر، فإن العلم جهاد لا شهوة، الأخذ عن العلماء الموثوقين في علمهم ودينهم وتوقير العلماء وإكرامهم والتأدب معهم، وحفظ مكانتهم، وتوقير مجالسهم، وحسن السؤال والإصغاء، التفرغ للعلم والإقبال عليه، بشرط التوازن وعدم الإخلال بالواجبات الأخرى، المحافظة على الأوقات، وحسن ترتيبها، والحرص على استغلالها، كثرة الاستغفار والتوبة والدعاء، والانطراح بين يدي الله وسؤاله العلم النافع والعلم الصالح، ذكر الموت والآخرة، ليعين على شغل الوقت بالنافع، ترك الفضول من الكلام والسماع والنظر والخلطة والمنام، مخالطة من هم أكثر علما وفهما، لئلا يقنع الطالب بما حصل من علم، فيحرص على الاستزادة، وليتجنب العجب والغرور.

معوقات طلب العلم

1 - فساد النية: حب التصدر والشهرة ويجب مجاهدة النفس.

2 - التفريط في حلقات العلم: لو لم يكن فيها إلا السكينة التي تتنزل على حاضريها لكفى.

3 - التذرع بكثرة الأشغال: وهذا مدخل رئيسي للشيطان فيجب ترتيب الأوقات.

4 - التفريط في طلب العلم في الصغر: إن الإنسان ليغبط أناسا أصغر منه سنا وأكبر همة.

5 - تزكية النفس: أن يحب الشخص مدح نفسه ويفرح بسماع ثناء الناس عليه (ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا) وتزكية النفس مذمومة (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) فحب التزكية وحب الثناء من مداخل الشيطان.

6 - عدم العمل بالعلم: سبب من أسباب محق بركة العلم ومن أسباب قيام الحجة على صاحب العلم (كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) وزكاة العلم العمل به وتعليمه للغير.

7 - التسويف: وهو كما يقول أحد السلف «من جنود إبليس»

فوائد العلم

به يعرف الله ويعبد ويوحد.

هو أساس صحة الاعتقاد والعبادات.

طلب العلم عبادة.

طريق الوصول إلى الجنة.

يكسب صاحبه خشية الله والتواضع للخلق.

يبقى أجره بعد انقطاع أجله.

يرفع الوضيع ويعز الذليل ويجبر الكسير.

فائدة طلب العلم

أفضل من قيام الليل، لأن طلب العلم كما قال الإمام أحمد لا يعدله شيء لمن صحت نيته، بأن ينوي به رفع الجهل عن نفسه وعن غيره، فإذا كان الإنسان يسهر في أول الليل لطلب العلم ابتغاء وجه الله سواء كان يدرسه أو كان يدرّسه ويعلمه الناس فإنه خير من قيام الليل، وإن أمكنه أن يجمع بين الأمرين فهو أولى (ابن عثيمين رحمه الله تعالى).

من آثار الجهل

على مستوى الفرد أو المجتمع: انتشار البدع والضلالات في العقائد والعبادات، والمعاملات، وضعف الإيمان، وقلة التقوى، وازدياد المعاصي، وضعف الهيبة، كما أن الجهل بالعلم الشرعي يعد مدخلا من مداخل إبليس كما قال ابن القيم في كتابه (تلبيس إبليس).

تحذير

قال النبي «صلى الله عليه وسلم»: «من تعلم علما مما يبتغي به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة يعني ريحها» أخرجه أبو داود.

واحذر أخي المتعلم: الكبر والغرور بالعلم والمراءاة والمخاصمة والجدل وكتم العلم فهذا يؤدي إلى نسيانه واحذر من إطلاق الفتاوى بغير علم قال صلى الله عليه وسلم: (اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن دعاء لا يسمع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع» النسائي صححه الألباني.

لئن تعين على العامي معرفة بعض القواعد الأصولية وجوبا، فإن تعلم القواعد العامي للأصول إجمالا له فوائد عظيمة، من أهمها ما يأتي:

1 - علم الأصول علم شرعي يحصل بطلبه مع النية الثواب الذي رتبه الشرع على طلب العلم.

2 - علم الأصول يؤهل الإنسان لاستخراج أحكام الشرعية، فينقل العامي إلى رتبة الاجتهاد.

3 - علم الأصول يعطي الإنسان القدرة على فهم النصوص الشرعية.

4 - علم الأصول يوضح للمصطلحات العلمية التي يستخدمها العلماء في فتاواهم ومؤلفاتهم.

5 - علم الأصول يجعل الإنسان يضبط كلامه و ألفاظه، بحيث يستخدم اللفظ الذي يريد معناه.

6 - علم الأصول يعطي العامي الثقة في صحة الاجتهاد الذي سار عليه المجتهد الذي يتبع كلامه.

7 - علم الأصول يعرف الإنسان كيف يسأل العلماء، ويعرفه من هم الذي يسألهم.